

درس في مكانة السنة

مكانة السنة وحجيتها — ورقة الدرس

من الشهادة بأن محمدا رسول الله تنشأ صلتنا بهديه: نتلقى عنه الدين، ونتعلم بيانه للقرآن، ونتبعه فيما ثبت عنه. حجية السنة هي هذه المرجعية، وهي غير سؤال ثبوت رواية بعينها أو فهم دلالتها.

لمن؟

للقارئ والمعلم في درس مكانة السنة.

طريقة الاستعمال

الشرح أولا، ثم سؤال المراجعة. الإجابة في آخر الورقة والمراجع مع الفقرات.

01 ماذا تعني حجية السنة؟

الحجة هي الدليل الذي يعتمد عليه في معرفة الدين. وحجية السنة تعني أن ما ثبت عن رسول الله ﷺ من التشريع والبيان مصدر نعرف به ما أمر الله به وما نهى عنه، وكيف نعبده ونحسن التعامل مع خلقه. ليست السنة إضافة للزينة حول القرآن؛ إنها هدي الرسول الذي أمرنا القرآن باتباعه.

يبدأ هذا المعنى من الشهادة بأن محمدا رسول الله: نصدق به فيما بلغ، ونتبع ما جاء به عن ربه. ومن ثم لا تكون العلاقة بالنبي إعجابا بأخلاق شخصية تاريخية فحسب؛ بل إيمانا برسائله وتلقيا لهدايته.

ولفظ السنة هنا غير استعماله في بعض كتب الفقه بمعنى المستحب. فعندما يقال إن صلاة معينة سنة، فالمقصود حكم ذلك الفعل. وعندما يقال إن السنة حجة، فالمقصود مرجعيتها في الدين، وتشمل ما يدل على واجب أو مستحب أو مباح أو محرم بحسب الدليل.

طاعة الرسول من طاعة الله

من أطاعني فقد أطاع الله

يؤكد الحديث أن طاعة النبي ﷺ متصلة بطاعة الله الذي أرسله.

صحيح البخاري، كتاب الأحكام، حديث 7137

المرجع الأصلي: sunnah.com

02 القرآن يأمر باتباع الرسول

لم يقتصر القرآن على الأمر بتلقي ألفاظه؛ بل أمر بطاعة الرسول، وجعل الرجوع إليه سبيلا لفصل التنازع، وبين أن من مهمته شرح ما أنزل للناس. هذه المعاني متكاملة: الرسالة بلاغ للنص، وتعليم لمعناه، وبيان للعمل به.

لذلك لا يستقيم أن نحتج بالقرآن لإبعاد السنة كلها؛ فالكتاب الذي نحتج به هو الذي يأمر باتباع الرسول. ولا يعني ذلك مساواة الحديث بالقرآن في جميع الخصائص: القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته، وله خصائصه، والسنة الثابتة تبينه وتدل على هديه.

تظهر الدلالة حين نجمع الأمر بالطاعة مع مهمة البيان؛ فلا يبقى الرسول مجرد ناقل كتاب يسلم الناس نصه ثم تنتهي صلتهم بتعليمه.

القرآن الكريم — طاعة الرسول ﷺ

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول

الأمر بطاعة الرسول دليل على أن اتباعه من الدين، وليس اختيارا منفصلا عن طاعة الله.

سورة النساء، الآية 59؛ تفسير ابن كثير، فقرة الرد إلى الله والرسول

المرجع الأصلي: quran.ksu.edu.sa

القرآن الكريم — بيان الرسول ﷺ

لتبين للناس ما نزل إليهم

جعل الله بيان ما أنزله من مهمة الرسول ﷺ؛ فمعرفة القرآن تشمل معرفة بيانه النبوي.

سورة النحل، الآية 44؛ تفسير ابن كثير

المرجع الأصلي: quran.ksu.edu.sa

03 كيف يظهر ذلك في عبادة واحدة؟

الصلاة مثال قريب. يأمر القرآن بإقامتها، فيتعلم الصحابة من الرسول ﷺ أفعالها وكيفيةها، ثم يعلمون من بعدهم. جاء مالك بن الحويرث مع شباب من قومه، فأقاموا عند النبي وتعلموا منه، ثم رجعوا يحملون تعليماً شاهدوه وسمعوه.

قول النبي لهم أن يصلوا كما رأوه يصلي يجعل فعله بياناً مقصوداً للأمة. لم يترك لكل قارئ أن ينشئ هيئة الصلاة من عنده؛ ولم تكن رواية هذا التعليم زائدة على فهم الأمر القرآني، بل طريقاً إلى امتثاله.

ومن هنا تنشأ الحاجة إلى كتب الحديث: تحفظ أقواله وأفعاله، وتجمع طرق نقلها، ثم تتناول الشروح معانيها وما يجتمع معها من أدلة.

تعليم الصلاة بالقول والعمل

وصلوا كما رأيتموني أصلي

ربط النبي ﷺ صلاة أصحابه بما شاهدوه من صلاته؛ وهذا مثال واضح لبيان المجمل بالتعليم العملي.

صحيح البخاري، كتاب الأذان، حديث 631، عن مالك بن الحويرث

المرجع الأصلي: sunnah.com

04 اتباعه بعد وفاته ﷺ

انتهى الوحي بوفاة رسول الله ﷺ، ولم تنته الرسالة التي بلغها. اتباعه لمن جاء بعد الصحابة يكون باتباع سنته الثابتة، لا باختراع خبر جديد عنه. ونقل الصحابة والتابعين ومن بعدهم هو الذي يصل المتعلم بذلك البيان.

يفسر ابن كثير الرد إلى الله والرسول في آية النساء بالرجوع إلى الكتاب والسنة. فالرجوع ليس بحثاً عن رسول جديد أو تشريع جديد، بل تعلم لما جاء به الرسول الخاتم.

وتختلف وسائل الوصول باختلاف الأزمنة: سمع الصحابي مباشرة، وتلقى من بعده عن الرواة، ويقرأ المتعلم اليوم نصاً جمعه مصنف وشرحا كتبه عالم. تتعدد الوسائط، ويظل السؤال عن أمانة النقل وفهم المنقول أساسياً.

القرآن الكريم — طاعة الرسول ﷺ

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول

الأمر بطاعة الرسول دليل على أن اتباعه من الدين، وليس اختياراً منفصلاً عن طاعة الله.

سورة النساء، الآية 59؛ تفسير ابن كثير، فقرة الرد إلى الله والرسول

المرجع الأصلي: quran.ksu.edu.sa

05 حجية السنة لا تصح كل رواية

قولنا إن السنة حجة لا يعني أن كل عبارة منسوبة إلى النبي صحيحة. هناك فرق بين أصل وجوب اتباعه وبين التحقق من أنه قال عبارة بعينها. لأجل هذا الفرق نشأت عناية العلماء بالإسناد والرواة والمقارنة بين الألفاظ والطرق.

ثم إن ثبوت الحديث لا يغني عن فهمه. فقد يكون فيه لفظ يحتاج شرحاً، أو يكون بعض معناه قد بينته رواية أخرى. وإذا اختلف العلماء في صحة طريق أو في دلالة نص، فهذه دراسة لذلك الدليل، وليست بمجرد رفضا للسنة كلها. يجتمع بذلك التعظيم والتحقيق: نوفر ما ثبت عن الرسول، ونصون نسبته من الخطأ، ونتعلم معناه قبل أن نبني عليه استنتاجاً. وليس على القارئ المبتدئ أن يعيد تحقيق الكتب؛ ينتفع بما حرره أهل العلم ويعرف سبب الرجوع إليهم.

ابن الصلاح — العلة في السند والمتن

وقد تقع في متنه

يبين ابن الصلاح أن دراسة العلة تشمل طريق الرواية ولفظها، لا أسماء الرواة وحدها.

مقدمة ابن الصلاح، النوع الثامن عشر، ص91

المرجع الأصلي: shamela.ws

06 سؤال وإجابة

هل حجية السنة تعني أن كل خبر منسوب إلى النبي صحيح؟

لا؛ حجية السنة أصل، وثبوت الخبر المعين سؤال آخر. الأمر باتباع الرسول هو سبب العناية بما ينسب إليه، حتى لا ينسب إليه ما لم يقله أو يفعله.

وسع من هنا

المقالات والمراجع

مكانة السنة وحجيتها

المقال الكامل وأدلته.

المقال في لماذا الحديث؟